

البحاظر وموقفه من القرآن الكريم

للمكتور طه جابر ففاض
الأستاذ الساعر بكليّة الشريعة

مقدمة :

اعتاد الناس أن يختلفوا في الحكم على العباقره - من الناس - في مختلف العصور والأزمان : فمن هابط بهم إلى الحضيض ، إلى طالع بهم إلى السماك الأعزل - كما يقولون .

وأبو عثمان عمرو بن بحر الباحظر واحد من أولئك العباقره الذين حفل بهم تاريخنا العربي الإسلامي ، وكان وجودهم وما أنتجوه من أقوى الدلائل على عظمة هذه الأمة ، ومتانة بنائها ، وسلامة منطلقاتها الحضارية .

وهو - أيضاً - واحد من أعلام تاريخنا الأدبي والعلمي والفلسفي أحبه قوم فغالوا فيه ، وأضافوا عليه من النعوت ما تحمله عبقريته ، وما لا تحتمل .

وأبغضه آخرون فنسبوا إليه من النقائص ما لا يعقل ولا يقبل .

ومن أبرز ما نسب إليه : أنه واحد من الطاعنين على القرآن العظيم . رماه بذلك مخالفوه في مذهبه الكلامي الفلسفي .

ونحن في هذا البحث المختصر - جداً - لا نريد أن ندرس أبا عثمان دراسة كاملة ، فذلك مما يحتاج إلى رسالة مفردة ، لكنني أردت إيضاح موقف أبي عثمان من الطاعنين على القرآن العظيم ، لعلني أستطيع إقناع من يبحث عن الحقيقة المجردة بأن الباحظر واحد من المنافحين عن القرآن العظيم ، لا من الطاعنين عليه .

ومما يؤسف له — حقاً — : أن المظان التي كان يمكن أن توضح لنا جملة آراء الجاحظ — من كتبه ومصنفاته — في هذا الموضوع — إما أن تكون مما فقد من كتبه ، أو أنها لا تزال في مجاهل خزائن المخطوطات لم يكشف عنها الغطاء بعد مثل كتابه « خلق القرآن » و « إعجاز القرآن » أو « نظم القرآن » ، وكتابه « في الفتيا » . ففي نظري أن هذه الكتب لو وجدت — لأمكننا أن نعرف جملة آراء الجاحظ القرآنية ، والدينية عامة .

ومع ذلك فإن في الموجود في كتبه : كرسائله والبيان والتبيين والحيوان ما يمكن أن يغني بعض الغناء ، وكذلك بعض ما كتبه عنه الآخرون .

وقد رأيت أن أتناول هذا الموضوع تحت العناوين التالية :

- عصر الجاحظ .
- مولده ، واسمه ونسبه ، ولقبه .
- نشأته ، علمه وفضله وأدبه .
- الجاحظ والاعتزال .
- منشأ شبهة طعنه على القرآن العظيم .
- مناقشة الشبهة ، وتفنيدها .
- نماذج متفرقة من ردوده على الطاعنين في القرآن الكريم .
- خاتمة البحث .

١ - عصر الجاحظ :

عاش الجاحظ في ذلك العصر الزاهر من العصور الإسلامية - العصر الذي أطبق المؤرخون على تسميته - بحق - بالعصر الذهبي ، ذلك العصر الذي ازدهرت فيه العلوم والفنون والآداب حتى زخرت بها معاهد البصرة ، والكوفة ، ثم بغداد ، وسائر حواضر الإسلام - التي كانت تتنافس في صنوف العلم ، وتبارى في ضروب المعرفة . وتتسابق إلى احتضان رجال العلم والفن والأدب .

٢ - مولده :

اختلف المؤرخون في تحديد مولد الجاحظ : فمنهم من زعم - أنه ولد سنة تسع وخمسين ومائة « ١٥٩هـ »^(١) . ومنهم من قال غير ذلك .

ولكن الصحيح ما صححه هو ، ونقله عنه الحموي في معجمه ، فقد روى عنه أنه قال في بعض كتبه : « أنا أسن من أبي نواس بسنة ولدت سنة خمسين ومائة ١٥٠هـ » . أي سنة (٧٦٧) م .

وقد ذكر ابن خلكان نقلاً عن الخطيب البغدادي : أنه ذكر أبا نؤاس في تاريخ بغداد ، وقال : « إن ميلاده كان في سنة ست وأربعين ومائة » ، وهذا يعني أن صاحبنا أبا عثمان قد ولد سنة (١٤٧هـ) . ومع ذلك فما دام الرجل قد نص على تاريخ مولده ، وذكر أنه سنة (١٥٠هـ) فيقول له يجب أن تأخذ^(٢) .

٣ - اسمه ونسبه :

هو : عمرو بن بحر بن محبوب بن فزارة ، اللبني الكنتاني .
وكنيته : أبو عثمان .

(١) ، (٢) انظر أدب الجاحظ ورسائله ١٩/١ ، وما بعدها .

وكان « فزارة » جد الجاحظ أسود اللون ، يعمل جمّالاً لعمر بن قلع الكنانى ، ومن هنا نشأ الشك — عند البعض — فى عربية الجاحظ : فتوهم أنه عربى بالولاء ، لا بالنسب . ولم نجد أحداً ممن ترجم له ذكر أن الرق قد وقع على أى من أجداده ، ولو وجد ذلك لما أغفله شائئوه وهم كثير .

وأما سواد اللون — فلا يمكن اعتباره دليلاً على الرق ، لأسباب لا تخفى .

وأما قيام جده « فزارة » على إبل عمرو بن قلع — فهذا هو الآخر لا يصلح دليلاً على ما ذكر .

ولو صح ما ذهب إليه ظن هذا البعض — لوجدنا الجاحظ على رأس الشعوبين — الذين لم يكونوا يرون للعرب شيئاً من فضل ، ولكننا على العكس رأيناه شديد الاعتزاز بالعرب ، كبير الاعتداد بمآثرهم ، فكان لا يرى فضيلة فى أمة من الأمم إلا ويروي أهم منها للعرب ، بل هو لا يرى أمة من أمم الأرض تفضل العرب بأي خصلة من خصال الخير والنبل ، وما من مزية من مزايا الأمم إلا ويرى الجاحظ أن العرب أولى بها ، وأسبق إليها .

لقبه :

لقب أبو عثمان بـ « الجاحظ » لأنه كان مشوّه الحلقة ، جاحظ العينين — أي : بارزهما ، وربما لقب بـ « الحدقي » ، لأنه كان ناتئ الحدقتين — وليس فى هذا ما يعيب شيخ الأدباء ، فكثير من العظماء لم يكن لهم فى جمال الحلقة نصيب — فشيخ الفلاسفة « سقراط » كان مشوّهاً ، جاحظ العينين ، أفطس الأنف ، ضخم الشفتين . ولعل خصوم أبي عثمان قد أطلقوا عليه هذا اللقب وغلبوه على اسمه وكنيته : رغبة فى نبزه ومضايقته .

وقد كان — رحمه الله — على جلاله قدره يضيق بهذا اللقب ، ويحتهد فى ترغيب الناس بدعوته باسمه ، أو كنيته ، ويطلق على اسمه « عمرو » : الاسم المظلوم .

ولو علم الجاحظ أن لقبه هذا — سيكون بعد فترة من الزمن نعتاً من نعوت التكريم ، ولقباً من أجل ألقاب التقدير — لما تبرم به ، أو تضايق منه ، فإنه ما إن فارق الجاحظ هذه الدنيا — حتى أصبح لقبه هذا — يطلق على كل متبحر في العلوم ، ومتفوق في فنون البلاغة وصنوف البيان ، فإنهم كانوا إذا أرادوا تكريم أحد من هؤلاء أطلقوا عليه « جاحظ زمانه »^(١) ، أو « الجاحظ الثاني »^(٢) .

نشأته :

ولد الجاحظ بالبصرة ، وبها نشأ ، وكانت البصرة والكوفة — في ذلك العصر — يطلق عليهما : « المصران » فهما البلدان اللذان كانا يزخران بالعمران ، ويزدهران بصنوف العلوم ، وضروب الفنون ، ويتباريان في حلقات الآداب ، ويتيهان على سائر الأمصار الإسلامية بمن خرج من حلقاتهما من رجال الفقه والكلام واللغة والحديث .

وهكذا قدر لصاحبنا أن يفتح عينيه لا على نور الحياة وحده ، وإنما على نورها وأنوار سائر علوم زمانه وفنونه — التي كانت في متناول يده منذ ولد ، ولذلك فإنه ما إن بلغ سن التمييز حتى عكف على الدرس والتعلم والاطلاع ، تقوده نفس « طلعة » شديدة الفهم إلى كل ضروب المعرفة — حتى إنه لا يقع في يده كتاب إلا استوفاه قراءة ، وربما استظهره ، دون تفريق بين علم وآخر ، أو فن وغيره ، بل إنه كان يستأجر دكاكين الوراقين — باعة الكتب — يبيت فيها يقرأ من الكتب ما لا يستطيع شراؤه .

وكان نظام التعليم على عهده — يعد مفخرة من مفاخر أمتنا الإسلامية : فقد كان الرجل يبعث بولده إلى « كُتّاب الحي » ليتعلم مبادئ القراءة والكتابة ، وشيئاً من قواعد النحو والصرف ، وطرفاً من أصول الحساب ، ثم يستظهر كتاب الله استظهاراً مجوداً مرتلاً مع علم القراءات .

(١) كأبي زيد البلخي .

(٢) كأبي الفضل ابن العميد ، وأبي حيان التوحيدي .

فإذا أتقن ذلك ولى وجهه شطر المساحد الجامعة — ليجد فيها الأئمة في كل علم وفن يجلسون إلى سواربها — يدرسون الفقه والحديث والتفسير واللغة والكلام والمنطق والفلسفة وسائر العلوم .

وعلى هذا النظام ، أو قريب منه — تلقى الجاحظ علومه عن شيوخ المصريين : البصرة والكوفة — أمثال : « أبي عبيدة معمر بن المثنى الشيباني ، وعبد الملك بن قريب الأصمعي ، وأبي زيد الأنصاري ، وأبي الحسن الأخفش وأبي إسحاق النظام » وغيرهم .

ولم يكتف أبو عثمان بهؤلاء الشيوخ — وكلهم علّم في علمه — بل كان يذهب إلى « مربد البصرة »^(١) — الذي كان سوق عكاظ ذلك الوقت يلتقي فيه الخطباء والشعراء والرواة والنسابون يعرضون منتجات قرائحهم — فيتلقى الجاحظ ذلك منهم مباشرة ، ويتلقف الفصاحة منهم شفاها .

ولذلك أتقن الجاحظ معظم علوم زمانه ، إن لم يكن قد أتقنها كلها حتى استحق قول أبي العيناء — حين سئل : أي شيء كان الجاحظ يحسن ؟ فقال : « ليت شعري ، أي شيء كان الجاحظ لا يحسن » ؟^(٢) .

ولما جاوز أبو عثمان الخمسين من عمره — عنّت له الرحلة إلى بغداد واتخاذها دار إقامة له — وكان ذلك في عهد الخليفة المأمون — فدخلها في سنة (٢٠٤ هـ) ، وما أن استقر مقامه بها — حتى تصدر للتعليم والمناظرة فقصده العلماء والأدباء ، وأقبل عليه طلاب العلم من كل صنف ، ولون . وطبق صيته الآفاق ، وطلب صداقته الوزراء ، وخطب وده الكبراء ، ونالت كتبه من الاهتمام ما لم تحظ به كتب عالم آخر .

واعترف له الخليفة المأمون بالفضل — حتى أسند إليه رئاسة « ديوان الرسائل » ، لكن أبا عثمان لم تعجبه قيود الوظيفة فاستعفى الخليفة ، فأعفاه .

(١) ، (٢) انظر مقدمة الحيوان ٢٠/١ .

الجاحظ وبعض منتقديه :

وكما كان للجاحظ أنصار ومحبون : منهم من غالى في مدحه والثناء عليه ، ومنهم من اقتصد — كان للجاحظ كذلك خصوم ومخالفون ، لم يدعوا من المثالب شيئاً يمكن أن يرمى به إلا وجهوه نحوه ، ورموه به .

وعلى قمة تلك المطاعن — الطعن في الدين ، فهو في نظر البعض متأول للقرآن الكريم ، متهاون مع الطاعنين عليه ، طاعن في السنة ، عابث كذاب وضاع .

ولا نريد الوقوف مع كل الطاعنين على الجاحظ — فذلك أمر قد يخرجنا عن موضوعنا الأساسي ، بل سنقتصر على الإمام « ابن قتيبة » كواحد من الطاعنين في الجاحظ .

وعلى الإمام « القاضي الباقلاني » كواحد من أصحاب الملاحظات عليه .

أما ابن قتيبة فقد تحدث عن الجاحظ في كتابه « تأويل مختلف الحديث » — حيث قال — بعد أن انتقد جملة من أصحاب الرأي — : « ثم نصير إلى الجاحظ — وهو آخر المتكلمين ، والمعاير على المتقدمين ، وأحسنهم للحجة استثارة ، وأشدهم تلطفاً لتعظيم الصغير حتى يعظم ، وتصغير العظيم حتى يصغر ، ويبلغ به الاقتدار إلى أن يعمل الشيء ونقيضه ، ويحتج بفضل السودان على البيضان ، وتجده يحتج مرة للعثمانية على الرافضة ، ومرة للزيدية على العثمانية وأهل السنة .

ومرة يفضل علياً — رضي الله عنه — ومرة يؤخره .

ويقول : قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ويتبعه قال : الجمار ، وقال : إسماعيل بن غزوان : كذا وكذا من الفواحش .

ويجل رسول الله — صلى الله عليه وسلم — عن أن يذكر في كتاب ذكر فيه فكيف في ورقة ، أو بعد سطر أو سطرين .

ويعمل كتاباً - يذكر فيه حجج النصارى على المسلمين ، فإذا صار إلى الرد عليهم تجوز في الحجة ، كأنه إنما أراد تنبيههم على ما لا يعرفون ، وتشكيك الضعفة من المسلمين .

ونجده يقصد في كتبه للمضاحيك والعبث - يريد بذلك استمالة الأحداث وشراب النبيذ .

ويستهزئ من الحديث استهزاء - لا يخفى على أهل العلم : كذكره كبد الحوت ، وقرن الشيطان ، وذكر الحجر الأسود وأنه كان أبيض فسوده المشركون ، وقد كان يجب أن يبيضه المسلمون ، حين أسلموا .

ويذكر الصحيفة - التي كان فيها المنزّل في الرضاع تحت سرير عائشة ، فأكلتها الشاة .

وأشياء من أحاديث أهل الكتاب في تنادم الديك والغراب ، ودفن الهدهد أمه في رأسه ، وتسبيح الضفدع ، وطوق الحمامة ، وأشباه هذا - مما سنذكره فيما بعد إن شاء الله .

وهو - مع هذا - من أكذب الأمة ، وأوضعهم لحديث ، وأنصرهم لباطل .

ومن علم - رحمك الله - أن كلامه من عمله ، قل إلا فيما ينفعه . ومن أيقن أنه مسئول عما أَلَفَ ، وعما كتب : لم يعمل الشيء ، وضده ، ولم يستفرغ مجهوده في تثبيت الباطل عنده .

وأنشدني الرياشي :

ولا تكتب بخطك غير شيء يسرك في القيامة أن تراه ^(١) اهـ .

وهذا الذي رمى به ابن قتيبة الجاحظ - أمر ليس بمستغرب من إنسان مخالف

(١) انظر : تأويل مختلف الحديث ٥٩-٦٠ .

له في المذهب : فالجاحظ من المعتزلة ، وابن قتيبة من أهل الحديث ، الذين ينزههم مخالفوهم بأنهم « حشوية » .

ومثل هذا النوع من التنديد المتبادل — بين المختلفين في المذاهب الكلامية كان شائعاً ، مما جعل علماء الجرح والتعديل يمتنعون عن الأخذ بقول مخالف فيمن يخالفه .

وابن قتيبة نفسه — لم يعدم من ندد به ، وانتقصه ، فقد قال عنه البيهقي : « إنه كان كرامياً » .

وقال الدارقطني : « إنه كان يميل إلى التشبيه » .

وقال الحاكم : « أجمعت الأمة على أنه كذاب ، وأحسن الظن فيه بعضهم ، فنفي عنه ذلك » .

وعلى هذا فإنني لا أجد ما يفرض مناقشة هذه التهم تفصيلاً ، وبيان أنها لا تقوم دليلاً لمثل أبي محمد في النيل من أبي عثمان ، فهي جارية على عادتهم في التهوين من شأن بعضهم بدافع من الخلافات المذهبية . ورضي الله عن ابن عباس — حيث يقول : « استمعوا علم العلماء ، ولا تصدقوا قول بعضهم على بعض ، فوالذي نفسي بيده لهم أشد تغيراً من التيوس في زروها^(١) » .

أما القاضي الباقلاني — فقد عاب على أبي عثمان أسلوبه الكتابي ، وفضل عليه « ابن العميد » فيه ، وذلك من خلال كتبه في « نظم القرآن » و « الرد على النصارى » ، و « خبر الواحد » ويمكن اعتبار ما ذكره الباقلاني في الجاحظ نوعاً من النقد الأدبي ، فهو يعيب عليه كثرة نقوله — التي « ... يوشح بها كلامه — من بيت سائر ، وفصل نادر ، وحكمة مهدة منقولة ، وقصة عجيبة مأثورة ، وأما كلامه في أثناء ذلك —

(١) انظر : المبتكر لعبد الوهاب عبد اللطيف . طبع دار الكتب الحديثة سنة ١٣٨٦-١٩٦٦ ص ٧٠ .

فسطور قليلة وألفاظ يسيرة ، فإذا أخرج إلى تطويل الكلام خالياً عن شيء يستعين به ، فيخلط بقوله من قول غيره : كان كلاماً ككلام غيره . فإن أردت أن تحقق هذا فانظر في كتبه في « نظم القرآن » ، وفي « الرد على النصارى » ، وفي « خبر الواحد » وغير ذلك مما يجري هذا المجرى — هل تجد في ذلك كله ورقة تشتمل على نظم بديع ، أو كلام مليح ؟ .

على أن متأخري الكتّاب قد نازعوه في طريقته ، وجاذبوه على منهجه ، فمنهم من ساواه — حين ساماه ، ومنهم من أبرّ عليه إذ باراه .

هذا أبو الفضل بن العميد قد سلك مسلكه ، وأخذ طريقه ، فلم يقصر عنه ، ولعله قد بان تقدمه عليه ، لأنه يأخذ في الرسالة الطويلة — فيستوفيها على حدود مذهبه ، ويكملها على شروط صناعته ، ولا يقتصر على أن يأتي بالأسطر من نحو كلامه كما ترى الجاحظ يفعل في كتبه : متى ذكر من كلامه سطرأ أتبعه من كلام الناس أوراقاً ، وإذا ذكر منه صفحة بنى عليه من قول غيره كتاباً^(١) .

وملاحظات القاضي الباقلاني — هذه — واضح أنها قائمة على الكتب الثلاثة التي أشار القاضي إليها — ومن عناوينها يعرف أنها كتب خاصة في موضوعات نقلية — لا يمكن للجاحظ ولا لغير الجاحظ أن يكتب فيها إلا بالأسلوب — الذي أشار إليه القاضي .

فإن هذه المواضيع تفرض نقل أقوال الآخرين — كاملة ، ثم مناقشة ما يستحق المناقشة منها .

فإذا أضيف إلى هذا أن القاضي الباقلاني إمام من أئمة « الأشاعرة » بينما الجاحظ إمام من أئمة « المعتزلة » ، ولسانها — يزول العجب من انتقاده لأسلوب الجاحظ الكتابي .

(١) راجع : أدب الجاحظ ورمائه ٥٥/١ .

– الجاحظ والاعتزال :

الجاحظ – من المعتزلة ، بل هو إمام من أئمتهم ، وصاحب طريقة فيهم .

والمعتزلة – كما يسميهم مخالفوهم – أو أهل العدل والتوحيد – كما يسمون أنفسهم – طائفة إسلامية ظهرت في أواخر القرن الأول للهجرة – حين اختلفت آراء الأئمة في « مرتكب الكبيرة » من المسلمين : فذهب الخوارج إلى تكفير مرتكب الكبيرة ، وذهب الحسن البصري وجماعة إلى أن مرتكب الكبيرة – من هذه الأمة – منافق .

وذهب الجمهور : إلى أن مرتكب الكبيرة – من هذه الأمة – مؤمن .

وذهب واصل بن عطاء – شيخ المعتزلة ورأسها – : إلى أن صاحب الكبيرة ليس بمؤمن مطلق ، ولا كافر مطلق ، بل هو في « منزلة بين المنزلتين » ومن هنا بدأ أئمة المعتزلة « واصل بن عطاء ، وعمرو بن عبيد » ونحوهما ببناء قواعد الاعتزال .

واعتنق هذا المذهب – بعدهم – كثيرون : أمثال أبي الهذيل العلاف وأبي إسحاق النظم – شيخ صاحبنا الجاحظ ، وكل من هؤلاء كان يجتهد ضمن الإطار العام للاعتزال – فيضيف من آرائه ما يجعله صاحب طريقة خاصة حتى أصبحت المعتزلة عشرين فرقة ، كل فرقة تنسب إلى عالمها : كالواصلية ، والهديلية والنظامية^(١) .

الجاحظية :

كان الجاحظ قد طالع كثيراً من كتب الفلاسفة وخلط وروج بعباراته البليغة ، وبراعته اللطيفة لهم ، وكان أكثر ميله إلى الفلاسفة الطبيعيين – فجاءت أقواله مطبوعة بفلسفتهم^(٢) .

(١) انظر : كتب الفرق – مثل الفرق بين الفرق للبغدادى والتبهيير في الدين للإسفرائيني والفصل لابن حزم .

(٢) انظر : المال والنحل ٨٠/١ .

وأهم ما اشتهر به الجاحظ ، وتميز عن بقية المعتزلة به — هو :

(أ) أن الجوهر يستحيل أن يعدم أو يفنى . وهذا يعني أنه من القائلين بقدم المادة .
وهذا قول يصطدم بالعقيدة الإسلامية القائلة بأن الله — تعالى — خلق العالم
من العدم^(١) .

(ب) اتحاد الحواس — من حيث الجنس^(٢) .

(ج) يرى أن المعارف ضرورية : فلا يعصي الله أحد إلا بعد العلم بما نهاه عنه .
وعليه فهو يرى أن الأنبياء اعتمدوا المعاصي ، وواقعوها — على غير تأويل ،
ومع العلم بأن الله — تعالى — قد نهى عنها .

وهذا يعني أنه ينفي « العصمة » عن الأنبياء — مخالفاً بذلك جمهور المعتزلة قبل
غيرهم .

وأن القدر خيره وشره من العبد .

هذا ما انفرد به الجاحظ والجاحظية عن سائر المعتزلة .

أما الأصول الأخرى — التي يتفقون مع بقية المعتزلة فيها — فالذي يهمننا منها
ما يتصل بموضوعنا .

(أ) نفي الصفات — فالمعتزلة هربوا من الاعتراف بصفات الله تعالى — خوفاً
من القول بتعدد القدماء ، وقالوا : إن الله — تعالى — عالم ولكن ليست له صفة قديمة
تسمى بـ « العلم » ، وإنما هو عالم بذاته ، وكذلك قالوا في سائر الصفات .

ولست أدري كيف ينفرد الجاحظ عن المعتزلة بالقول بـ « قدم المادة » ثم
يشاركهم بالقول بنفي الصفات : خوفاً من القول بتعدد القدماء ؟ .

(ب) الأصل الثاني : القول بـ « خلق القرآن » — وهذا الأصل مستمد إلى حد

(١) انظر تفاصيل قول الجاحظ هذا والرد عليه في « أصول الدين » للبغدادي ص ٢٣٠ .

(٢) انظر : مقالات الإسلاميين ٢/ ٣٤١ .

كبير من الأصل السابق ، فالقرآن الكريم كلام الله ، وجمهور المسلمين يقولون :
إن كلام الله - تعالى - قديم - والمعتزلة قائلون بأن القديم واحد فقط وهو الله
- تعالى - ف « القدم » صفة خاصة بالله تعالى .

منشأ الشبهة :

ومما لا شك فيه أن القول بهذه الأصول يؤدي إلى تأويل الكثير من النصوص
القرآنية ، وحملها على ما يذهبون إليه .

ولا شك - أيضاً - أن مخالفى هؤلاء - من أهل السنة ، والحديث وغيرهم
يرفضون تأويلاتهم ، وأساليبهم في التفسير ، ويعتبرونها طعناً على القرآن الكريم ،
وانحرافاً عن السنة . كما فعل ابن قتيبة .

ومن هنا نشأ القول بأن الجاحظ والجاحظية من الطاعين في القرآن الكريم .
وهؤلاء بدورهم ردوا عن أنفسهم التهمة ونسبوا إلى خصومهم ومخالفهم .

فهل الجاحظ من الطاعين على القرآن الكريم ، أم هو من المنافحين عنه ؟ هذا
ما سأحاول بيانه ما وجدت إلى ذلك سبيلاً .

للجاحظ كتب اشتهرت في زمانه ، وبعده - لا ندري ما إذا كانت الآن من
دوارة الكتب ، أم لها وجود أمثال كتابه : « في الرد على المشبهة » وكتاب « في
الأخبار وإثبات النبوة » ، وكتاب « في نظم القرآن » .

وهذه الكتب كما يتضح من عناوينها ، ومن النقول المختصرة القليلة المبثوثة
في كتب غيره - كتب تشتمل على آراء الجاحظ كاملة فيما يتعلق بالقرآن الكريم
والسنة النبوية المطهرة . وكان من الممكن أن تيسر لنا هذه الكتب - لو وجدت -
الحكم لأبي عثمان أو عليه ، حيث إن المطبوع من كتبه - إنما كتبه في مواضيع
أخرى ، وإذا تطرق فيها إلى بعض الآيات - فإنما يتطرق إلى ذلك استطراداً ، فيها ،

وما نقله عنه مخالفوه لا يمكننا الاعتماد عليه في تكوين حكم مصيب أو قريب إلى الصواب ، ومع ذلك فهي محاولة منا نأمل أن يحالفنا التوفيق في إعطاء فكرة – إذا تعذر علينا إعطاء حكم عن مذهب الجاحظ في هذا الموضوع الخطير – فنقول :

أوضحنا فيما سبق أن المعتزلة – عامة – ينفون صفات الباري – تعالى – بالمفهوم الذي يذهب إليه من عداهم من المسلمين فكل آية وردت بذكر صفة من صفات الباري – تؤول – عندهم – على أصلهم هذا ، وتصرف عن ظاهرها .

كما أن لكل آية من أمثال قوله تعالى : « يد الله فوق أيديهم » وقوله : « الرحمن على العرش استوى » وقوله : « والسماء بنيناها بأيدي وإنا لموسعون » – عندهم تأويلاً يتفق وأصولهم . بينما يأخذها من يسميهم الجاحظ بـ : « الظاهرية » و « المجسمة » و « المشبهة » و « الحشوية » على ظواهرها دون أي تأويل .

وكذلك يؤولون آيات القدر ، وكل الآيات المماثلة لها على أصولهم . ويعتبرون تفسيرها بغير ذلك نوعاً من الطعن في القرآن الكريم .

ولما كان الجاحظ واحداً منهم – فإنه لا بد وأن تكون ردوده على الفرق الأخرى هي نفس ردود أصحابه المعتزلة .

وهذه مقتطفات من دفاعه عن القرآن ، ونماذج من تفسيره لبعض الآيات .

* * *

نماذج من ردود الجاحظ على الطاعنين في القرآن الكريم

الجاحظ يدافع عن مصحف عثمان :

يقول أبو عثمان — وهو يدافع عن قراءة زيد : « ... والذي جمع أسلافنا الذين جمعوا الناس على قراءة زيد دون أبي بن كعب وعبدالله بن مسعود ، والذين رأوا من قول عبدالله في المعوذتين ، وقول أبي في سورتي العنكب ، ومن تعلق الناس بالاختلاف ، فكانوا لا يزالون قد رأوا الرجل يروي الحرف الشاذ ، ويقرأ بالحرف الذي لا يعرفونه ، فرأوا أن تحصينه لا يتم إلا بحمل الناس على المقرؤ — عندهم ، المشهور فيما بينهم ، وأنهم إن لم يشددوا في ذلك — لم ينقطع الطمع ، ولم يتزجر الطير ... فحملوا الناس^(١) على قراءة زيد دون أبي وعبدالله وإن كان الكل حقاً... »^(١)

الجاحظ وإعجاز القرآن :

يقول الجاحظ في الإعجاز : « ... إن رجلاً من العرب لو قرأ على رجل من خطبائهم وبلغائهم سورة واحدة طويلة أو قصيرة — لتبين له في نظامها ومخرجها ، وفي لفظها وطبعها : أنه عاجز عن مثلها ، ولو تحدى بها أبلغ العرب — لظهر عجزه عنها ، وليس ذلك في الحرف والحرفين والكلمة والكلمتين ، ألا ترى أن الناس قد كان يتهياً في طبائعهم ويجري على ألسنتهم أن يقول رجل منهم : الحمد لله ، وإنا لله ، وعلى الله توكلنا ، وربنا الله ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ، وهذا كله في القرآن غير أنه متفرق غير مجتمع ، ولو أراد أنطق الناس أن يؤلف من هذا الضرب سورة واحدة طويلة أو قصيرة على نظم القرآن وطبعه وتأليفه ومخرجه — لما قدر عليه ، ولو استعان بجميع قحطان ومعد بن عدنان ... »^(٢)

(١) انظر : أدب الجاحظ ورسائله ١٢٠/٢ - ١٢٢ .

(٢) انظر نفس المرجع .

الإيجاز في القرآن :

قال أبو عثمان : « ولي كتاب جمعت فيه آياً من القرآن - لتعرف بها فصل ما بين الإيجاز والحذف والزوائد والفضول والاستعارات ، فإذا قرأتها رأيت فضلها في الإيجاز والجمع للمعاني الكثيرة بالألفاظ القليلة ، فمنها قوله - حين وصف خمر أهل الجنة : « لا يصدعون عنها ولا ينزفون » ، وهاتان الكلمتان قد جمعتا جميع عيوب خمر أهل الدنيا .

وقوله عز وجل - حين ذكر فاكهة أهل الجنة - فقال : « لا مقطوعة ولا ممنوعة » ، جمع بهاتين الكلمتين جميع تلك المعاني . وهذا كثير قد دلتك عليه ، فإن أردته فموضعه مشهور » ^(١) .

رد الجاحظ على الذين قالوا : إن جميع الأشياء كانت ناطقة :

قال الجاحظ : وتأولوا قوله تعالى : « وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ما فرطنا في الكتاب من شيء » ، وقالوا : قال الله عز وجل : « إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً » .

وقال تعالى : « يا جبال أوبي معه والطير » . وقال : « وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء وإن منها لما يهبط من خشية الله » .

فذهبت الجهمية ، ومن أنكر إيجاد الطبائع مذهباً . . . وذهب ابن حائط ومن لف لفه - من أصحاب الجهالات - مذهباً . وذهب ناس من غير المتكلمين واتبعوا ظاهر الحديث وظاهر الأشعار ، وزعموا : أن الحجارة كانت تعقل وتنطق ، وإنما سلبت المنطق فقط . فأما الطير والسباع - فعلى ما كانت عليه ... » .

(١) انظر : الحيوان ٣/ ٣٨٦ .

ثم يستطرد أبو عثمان إلى ذكر بعض ما أورده من الحديث لتعزيز مذاهبهم بالأخذ بظواهر هذه الآيات ، ويعقب عليها بقوله : « ... وليس هؤلاء ممن يفهم تأويل الأحاديث ، وأي ضرب منها يكون مردوداً ، وأي ضرب منها يكون متأولاً ، وأي ضرب منها يقال — إنما هو حكاية عن بعض القبائل » .

ثم يعلن اعتزازه بالمتكلمين ، وبالمعتزلة — منهم — خاصة فيقول : « ولذلك أقول : لولا مكان المتكلمين — هلكت العوام ، واختطفت واسترقت ، ولولا المعتزلة — هلك المتكلمون » ^(١) .

رده على الطاعنين على بعض الآيات :

١ — واعترض قوم على قوله تعالى : « الحمد لله فاطر السماوات والأرض جاعل الملائكة رسلاً أولي أجنحة مثنى وثلاث ورباع يزيد في الخلق ما يشاء » .

وخلاصة اعتراضهم — أنهم قالوا : إنما الجناح مثل اليد ، ووجدنا الأيدي والأرجل ، في جميع الحيوان لا تكون إلا أزواجاً ، فلو جعلتم لكل واحد منهم مائة جناح — لم تنكر ذلك ، وإن جعلتموها أنقص بواحد أو أكثر بواحد لم تجوزه .

وبعد أن أطنب في الرد عليهم ومناقشته أقوالهم ، وذكر الحيوانات المختلفة من عجائب المخلوقات — التي تدل على جواز ذلك عقلاً — قال : « وقد يجوز أيضاً أن يكون موضع الجناح الثالث بين الجناحين ، فيكون الثالث للثاني كالثاني للأول ، وتكون كل واحدة من ريشه عاملة في التي تليها من ذلك الجسم — فتستوي في القوى وفي الحصص ، ولعل الجناح الذي أنكره الملحد الضيق العطن — أن يكون مركز قوادمه في حلق الصلب .

ولعل ذلك الجناح أن تكون الريشة الأولى منه معينة للجناح الأيمن والثانية معينة للجناح الأيسر ، وهذا مما لا يضيق عنه الوهم ، ولا يعجز عنه الجواز .

(١) راجع : الحيوان ٢٨٧/٤ - ٢٨٩ .

فإذا كان ذلك ممكناً في معرفة العبد بما أعاره الرب جل وعز : كان ذلك في قدرة الله أجوز .

وما أكثر من يضيق صدره لقلة علمه^(١) .

رده على الطاعنين على آية تحريم الخنزير :

قال أبو عثمان : « وسأل سائلون في تحريم الخنزير عن مسألة ، فمنهم من أراد الطعن ، ومنهم من أراد الاستفهام ، ومنهم من أحب أن يعرف ذلك من جهة الفتيا إذا كان قوله خلاف قولنا .

قالوا : إنما قال الله : « حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير » ، فذكر اللحم دون الشحم ودون الرأس ، ودون المخ ودون العصب ، ودون سائر أجزائه ولم يذكره كما ذكر الميتة بأسرها ، وكذلك الدم ، لأن القول وقع على جملتها فاشتمل على جميع خصائصها بلفظ واحد ، وهو العموم ، وليس ذلك في الخنزير : فكان ينبغي على قولهم — أن لا يحرم ما عدا اللحم منه » .

وقد رد أبو عثمان على هؤلاء بقوله : « ... إن للناس عادات وكلاماً يعرف كل شيء بموضعه ، وإنما ذلك على قدر استعمالهم له وانتفاعهم به . وقد يقول الرجل لو كيله : اشتر لي بهذا الدينار لحماً ، أو بهذه الدراهم فيأتيه باللحم فيه الشحم والعظم والعرق والعصب والغضروف » .

واستمر في مناقشته لهم — إلى أن قال : « فلما كان اللحم هو العمود الذي إليه يقصد ، وصار أعظم الأجزاء قدراً . دخل سائر تلك الأجزاء في اسمه ... فلما قال « حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير » ، وكانت هذه الأشياء المشبهة باللحم تدخل في باب العموم — في اسم اللحم : كان القول واقعاً على الجميع »^(١) .

(١) راجع : الحيوان ٣/٢٣١ وما بعدها .

(٢) راجع : الحيوان ٤/٥٦-٧٧ . وانظر ٩٧ ، و ٩٩ منه .

مناقشته للطاعنين في مسألة الهدهد :

أورد الطاعنون جملة اعتراضات على قصة هدهد نبي الله سليمان — منها : أنه كيف يتوعد حيواناً بالعقاب ، وهو غير أهل للثواب والعقاب ؟ . ثم إذا سلمنا أنه أهل لذلك — فكيف يتوعد بالذبح أو العذاب الشديد لمجرد غيابه ؟ .

فذكر أبو عثمان جميع آيات القصة وكل اعتراضات الطاعنين عليها ، وتناولها بالرد جملة وتفصيلاً .

ومن ردوده عليهم قوله : « إن الله — تعالى — لم يقل « مالي لا أرى هدهداً » من عرض الهداهد ، فلم يوقع قوله على الهداهد جملة ، ولا على واحد منها غير مقصود إليه ، ولم يذهب إلى الجنس عامة ، فأدخل في الاسم الألف واللام فجعله معرفة : فدل بذلك القصد على أنه ذلك الهدهد بعينه ، وكذلك غراب نوح ، وكذلك حمار عزيز ، وكذلك ذئب أهبان بن أوس فقد كان لله فيه وفيها تدبير ، وليجعل ذلك آية لأنبيائه ، وبرهاناً لرسله . . .

فإن قال الخصم : ما تعرف كلام الذئب ، ولا معرفة الغراب ، ولا علم الهداهد .

قلنا : نحن ناس نؤمن بأن عيسى — عليه السلام — خلق من غير ذكر ، وإنما خلق من أنثى ، وأن آدم وحواء خلقا من غير ذكر وأنثى ، وأن عيسى تكلم في المهد ، وأن يحيى بن زكريا ، نطق بالحكمة في الصبا^(١) .

* * *

وهكذا نجد أبا عثمان يتعقب الطاعنين على القرآن الكريم لأدنى مناسبة ، ولا يتركهم إلا بعد أن يجعل من مطاعنهم دليلاً واضحاً على جهلهم وغبائهم وتهافت أقوالهم ، وتفاهة دعاواهم .

(١) راجع : الحيوان ٤/ ٣٧٧ .

وقد اقتصرنا على هذه النماذج اليسيرة مما بثه في المطبوع من كتبه من دفاع
عن القرآن الكريم خوف الإطالة ، وفيها ما يكفي لإقناع أي عاقل خال من الغرض
والتعصب بأن أبا عثمان مؤمن بالله وبكتابه ورسوله الإيمان الكامل ، وأن اتهامات
خصومه لا يمكن أن تنال منه بحال .

* * *

خاتمة البحث

١ - قال الجاحظ : « ... فكتبت لك كتاباً أجهدت فيه نفسي أقصى ما يمكن مثلي من الاحتجاج للقرآن ، والرد على طعان ، فلم أدع فيه مسألة لرافضي ولا لحديثي ولا لحشوي ، ولا لكافر معاند ولا لمنافق مقموع ، ولا لأصحاب النظام ، ولمن نجم بعد النظام - ممن يزعم أن القرآن حق ، وليس تأليفه بحجة ، وأنه تنزيل ، وليس ببرهان ولا دلالة ، فلما ظننت أنني قد بلغت أقصى محبتك ، وأتيت على معنى صفتك - أتاني كتابك تذكر أنك لم ترد الاحتجاج لنظم القرآن وإنما أردت الاحتجاج لخلق القرآن » (١) .

هذا جزء من رسالته للوزير الذي كتب له كتابه في « نظم القرآن » وهو يدل دلالة واضحة - على أن أبا عثمان خصص هذا الكتاب - المفقود حالياً - للرد على جميع المطاعن التي وجهها الكافرون أو المنافقون ، أو الجاهلون من المسلمين نحو القرآن الكريم ، وأن ما ورد في كتبه الموجودة ورسائله من ردود على الطاعنين ما هو إلا نزر يسير يذكره على سبيل الاستطراد - على كثرته ، وغنائه في إدخال أبي عثمان في صفوف المدافعين عن القرآن الكريم .

٢ - يتضح لنا من هذا البحث أن ما أخذه خصوم أبي عثمان عليه ، كابن قتيبة ، وعدوه طعنًا في القرآن منه - غير مستقيم ، وأن الدافع إليه هو التعصب والخلاف المذهبي ، وأن أبا عثمان يقف في مقدمة المدافعين عن القرآن الكريم .

٣ - كما يتضح لنا أن أبا عثمان عربي النسب وليس بمولى كما زعم الزاعمون .

(١) انظر : الجاحظ ورسائله ١٤٨/٢ .

٤ - وثبت لنا - أيضاً - أنه معتزلي العقيدة يفخر باعتزاله ، ويعتد به ولا يبلغ هذا أن يكون له مكفراً - فهم فرقة من الفرق الإسلامية .

وبعد فلعل استطعت بهذه العجالة أن أثبت أن أبا عثمان علم من أعلام أمتنا في علمه وأدبه وبيانه وإيمانه ، ودفاعه عن القرآن العظيم .

* * *

المراجع

- ١ - أدب الجاحظ ورسائله - طبع الرحمانية بمصر سنة ١٩٣١ م .
- ٢ - البيان والتبيين للجاحظ طبع الخانجي بمصر . الطبعة الثالثة .
- ٣ - تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة نشر مكتبة الكليات الأزهرية ١٩٦٦ م .
- ٥ - الحيوان للجاحظ - طبعة الحلبي الثانية سنة ١٩٦٥ م .
- كما رجعت إلى بعض كتب الفرق لإيضاح مذهب الجاحظ الكلامي مثل :
- ٦ - أصول الدين للبغدادي طبعة استامبول سنة ١٩٢٨ م .
- ٧ - الفرق بين الفرق للبغدادي - طبعة بيروت ١٩٧٣ م .
- ٨ - المعتزلة ، لزهدي جارالله طبع القاهرة ١٩٤٧ م .
- ٩ - الملل والنحل للشهرستاني على هامش الفصل لابن حزم طبع القاهرة سنة ١٩٢٨ م

